

آيات المدد في القرآن الكريم: دراسة بلاغية

Al-Madād in the Holy Quran: A Rhetorical Study

Ayat-ayat tentang Masa dalam Al-Quran al-Karim: Sebuah Kajian Retorik

د. ثناء نجاتي عياش*

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى دراسة أنواع المدد بوصفه نعمة من النعم التي يمنّ بها الله سبحانه وتعالى على عباده في القرآن الكريم دراسة بلاغية، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف تتبعت الآيات المحتوية على لفظة المدد حيثما وردت في القرآن الكريم، ثم صنّفتها حسب أنواع المدد التي تحدثت عنها. وبعد التحليل اتضح أن القرآن الكريم تضمن خمسة أنواع من المدد؛ فهناك المدد العام، والمدد الخاص بالمؤمنين، والمدد في الآخرة الذي اختص به الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين به، والمدد الخاص ببني إسرائيل الذي تحدثت عنه سورة الإسراء، وأخيراً المدد لغير المؤمنين الذي كان من أهدافه الترغيب أولاً ثم الاستدراج ثانياً. ولعلني ببحثي هذا استطعت إبراز مظهر من مظاهر بلاغة النص القرآني الذي يتميز بما فيه من إعجاز بلاغي، أعجز المتحدّين عن الاتيان بمثله، أو بسورة، أو بآية.

الكلمات المفتاحية: المدد- السياق- العام- المؤمنون- المشركون.

Abstract:

The purpose of this study is to examine the types of *Al-Madād* in the Holy Quran as a form of bounties granted by Allah to all mankind. For this purpose, all verses in the Holy Quran that contain the meaning of *Al-Madād* are investigated and later they are all classified according to the type of *Al-Madād*. It was discovered that the Holy Quran consists of five types of *Al-Madād*: general *Al-Madād*, *Al-Madād* for believers, *Al-Madād* in the hereafter

* أستاذة مشاركة، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشمية-الأردن.

which is bestowed upon His true believers, a special *Al-Madād* for the people of Israel which is mentioned in chapter Al Isra, lastly is *Al-Madād* for non-believers which is meant in the first place to attract and later to disgrace. It is hoped that the research would be able to highlight an aspect of Quranic rhetoric that challenges the unbelievers to produce a chapter or a verse like it.

Keywords: *Al-Madād* - Context- General- Believers- Non-Believers.

Abstrak:

Kajian ini bertujuan meneliti jenis masa yang terdapat dalam Al-Quran al-Karim dari segi retorik sebagai sebuah nikmat kurniaan Allah (S.W.T) kepada hambaNya. Pengkaji berdasarkan perkara tersebut telah mengesan ayat-ayat Quran yang mengandungi perkataan berkaitan masa dan dikelaskan mengikut jenis-jenis tertentu. Didapati terdapat lima jenis sifat masa; umum, khas untuk golongan beriman, hari akhirat yang diperuntukkan Allah khas untuk mereka yang beriman kepadaNya, berkaitan secara khusus dengan Bani Israil seperti yang terdapat dalam surah Al-Isra' dan akhir sekali ialah yang diperuntukkan kepada golongan tidak beriman dengan tujuan menarik minat dan memancing mereka. Diharapkan kajian dapat menyerlahkan beberapa aspek retorik dalam ayat Quran yang menjadi mukjizat melemahkan penentang daripada mencipta ayat atau surah seperti Quran.

Kata kunci: Masa– Konteks– Umum– Golongan Beriman– Golongan Kafir.

مقدمة:

كثيراً ما استوفيني إحجام المشركين عن معارضة القرآن الكريم على الرغم من الدعوة المتكررة لهم في النص القرآني بذلك، فهم أدركوا بسليقتهم - وهم الذين تميزوا بفصاحتهم - وبفطرتهم اللغوية السليمة أن ما ورد في القرآن الكريم ليس كلام بشر، ولا بمقدورهم الإتيان بمثله، أو بجزء منه. ومع أن القرآن الكريم نزل على سنن العرب في تأليف الكلام، إلا أنه بهرهم بأسلوبه وبما فيه من فنون القول.

ويجد أن الناظر في القرآن الكريم دعوة متكررة للتدبر في آياته والتفكير، من مثل قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^١ وجاء التعبير بالفعل المضارع (لِيَدَّبَّرُوا / وَلِيَتَذَكَّرَ) للدلالة على استمرارية هذه الدعوة وعدم توقفها عند عصر معين، كما أن الآية وصفت من يقوم بذلك بـ: (أُولُو الْأَلْبَابِ)، وهذا التدبر يتيح للمتلقي سبر أغوار النص، وتحليل دلالاته؛ ليتمكن من الوصول إلى عقد النسيج التي تتحكم في تماسكه،^٢ وبذا فإن النص القرآني يعلي من شأن المتلقي الذي من أجله نزل.

ويأتي هذا البحث ليتأمل في التعبير القرآني، وذلك باتباع المدخل الاستقرائي الذي يقوم على حصر الآيات التي وردت فيها لفظة (المدد)، ثم دراستها وتحليلها تحليلًا بلاغيًا؛ لإبراز مواطن من مواطن الجمال في النص القرآني الذي رآه الأديب معجزًا، ورآه اللغوي معجزًا، ورآه أصحاب القانون والتشريع معجزًا، ورآه علماء الاقتصاد وعلماء النفس والاجتماع معجزًا، ورآه المصلحون معجزًا، ورآه الراسخون في علمه معجزًا،^٣ (فالجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شؤون القول يتخير له من أشرف المواد، وأمستها رحمًا بالمعنى المراد... بحيث لا يجد المعنى في لفظه إلا مرآته الناصعة، وصورته الكاملة، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين، وقراره المكين)،^٤ ومن مظاهر إعجاز القرآن الكريم كلما نظر فيه الإنسان، وتأمله وجد فيه شيئًا جديدًا، وما على الإنسان إلا إعمال فكره فيما يقراء؛ ليستنبط ويستخرج مواطن الجمال في النص القرآني، وما كثرة الدراسات والأبحاث التي تناولت القرآن الكريم بالدراسة والتحليل إلا دليل على ذلك، وعلى الرغم من كثرتها إلا أنه يشكّل حقلًا خصبا للدراسات البلاغية، لأنه نابع من طبيعة التشكيل المعرفي والأسلوبي لهذا النص، فضلًا عن كونه نصًا تحدى به الله - سبحانه - الناس أن يأتوا بمثله.^٥

أولاً- المدد لغةً:

يرى ابن فارس أن: الميم والذال أصل واحد يدل على جرّ شيء في طول، واتّصال شيء بشيء في استطالة. تقول: مددّ الشيء أمده مدًا.^٦ قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثّره: مدّه يمدّه مدًا. والمادّة: كل شيء يكون مددا لغيره، والمادّة: الزيادة المتصلة، ومددنا القوم: صرنا لهم أنصارًا ومددًا وأمددناهم بغيرنا، وكل ما أعنت به قومًا في حرب أو غيره، فهو مادّة لهم. ويقال: (مدّ الله في عمرك أي جعل لعمرك مدة طويلة).^٧

وبما أنّ كل دراسة لغوية موضوعها المعنى، وكيفي يرتبط بأشكال التعبير المختلفة،^٨ كان لا بدّ من بيان أثر السياق في إثراء الألفاظ؛ لأن الكلمة في حال أفرادها تحتل دلالات شتى، والتركيب والعلاقات السياقية تكشف لنا عن قصد المتكلم إلى إحدى هذه الدلالات التي تحملها الكلمة حال أفرادها، وعزلها عن السياق.^٩

ولو نظرنا في النص القرآني لوجدنا الإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالاً بعد حال، يقول المفضل: ما كان منه بطريق التقوية والإعانة يقال فيه: أمده يمدّه إمدادًا، وما كان بطريق الزيادة يقال فيه: مدّه يمدّه مدًا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾،^{١٠} وقيل: المدّ في الشر كما في قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي

﴿وَأَمَّا دُونَكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنِينَ﴾^{١٤} وقوله: ﴿وَتَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾^{١٢} والإمداد في الخير^{١٣} كما في قوله تعالى:

المدد نعمة من النعم التي يمنّ بها الله - سبحانه وتعالى - على عبادة كافة، لكن ردود أفعال الناس إزاء هذه النعمة تتفاوت، كما سيتضح من التحليل الآتي:

١ - المدد العام:

بما أن عطاء الله - سبحانه وتعالى - الدنيوي يشمل المؤمن وغير المؤمن؛ لذا لا يحرم سبحانه وتعالى منه أحداً؛ لأن عطاءه لا مانع له، كما يفهم من قوله تعالى: ﴿كُلًّا تُمِدُّ هُوَ لَاءٌ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^{١٥} والتعبير بالفعل المضارع (تُمِدُّ) يدل على استمرارية عطاء الله - سبحانه وتعالى - كما أن عطاءه - سبحانه - كما وصف، غير منقوص ولا ممنوع ممن يريد بل هو زائد على مَنْ قُدِّرَ له بموجب المشيئة المبينة على الحكمة، وإن وُجد منه ما يقتضي الحظر كالكافر، وهو في معنى التعليل لشمول الإمداد للفريقين، والتعرض لعنوان الربوبية في الموضوعين للإشعار بمبدئيتها لما ذُكر من الإمداد، وعدم الحظر؛^{١٦} لذا جاء التذييل (وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا) ليؤكد هذه الحقيقة، وفي الحديث الشريف: "وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه"^{١٧} ويفهم من قوله تعالى: تُمِدُّ "الزيادة" مرة بعد مرة بحيث يكون الآنف مدداً للسالف لا ينقطع ولا يتوقف،^{١٨} فهو يعطي العطاء الكثير، ولا ينقص ذلك من ملكه شيئاً.

وفي نسبة العطاء إلى الله سبحانه وتعالى في قوله: "مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ" تنبيه إلى أن الإمداد المذكور لم يأت عن طريق الاستيجاب بالسعي والعمل بل بمحض التفضل؛^{١٩} لذا ربط كل ذلك بمشيئته - سبحانه وتعالى - بدليل قوله: ﴿مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾^{٢٠}.

جاء قوله هذا رداً على الفئة التي تريد الدنيا كما صور قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾^{٢١} والفئة التي تريد الآخرة كما بيّن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾^{٢٢}. ولئن تمّ العطاء في الدنيا إلا أن في الآخرة ستحاسب كل فئة على اختيارها؛ ونصت الآيتان صراحة على عاقبة كل فئة لتترك للمتلقّي المقارنة بين عاقبة الفئتين، وأبرزت المقابلة البون الشاسع بين العاقبتين، وشتان بين مَنْ كانت عاقبته (جهنم يصلها) ومَنْ (كان سعيهم مشكوراً).

وَدَلَّتْ (أولئك) في قوله تعالى: " فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا عَلَى الْمَكَانَةِ الْعَالِيَةِ لِلَّذِينَ اخْتَارُوا الْآخِرَةَ، وَبُعِدَ مَنْزِلَتُهُمْ، وَقَبُولَ سَعْيِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، وَفِي تَعْلِيْقِ الشُّكْرِ بِالسَّعْيِ دُونَ قَرِينَتِهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّهُ الْعَمْدَةُ فِيهَا.^{٢٣} ويتضح أنّ الله - سبحانه وتعالى - عَجَّلَ العطاء لمن اختار الدنيا، وحرمه من ذلك في الآخرة، وربط اختيار الآخرة بـ: (السعي) دلالة على أنّ الآخرة تحتاج إلى العمل لها؛ لذا جاء التوكيد بالمفعول المطلق (سعى سعيها) لتقرير هذه الحقيقة. وأثنى الله - سبحانه وتعالى - على هذا السعي بوصفه السعي المشكور؛ لأنه قاد صاحبه إلى الجنة يتنعم فيها، بينما من اختار العاجلة قاده اختياره إلى جهنم؛ لذا وصفه بالمدموم والمدحور.

٢ - المدد للمؤمنين:

اختص الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين في غزوة بدر بالإمداد بالملائكة؛ لتقويتهم هذا من جهة، ومن جهة أخرى للدلالة على علو شأنهم عنده - سبحانه وتعالى - لذا طلب من رسوله صلى الله عليه وسلم تذكيرهم بهذا الفضل حتى لا ينسوه في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمدِّدَكم رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آيَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾،^{٢٤} وقوله: ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آيَاتٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾،^{٢٥} وفي افتتاح الآية بقوله تعالى (إذ تقول) فيه تلوين للخطاب بتخصيصه برسول الله صلى الله عليه وسلم لتشريفه والإيذان بأن وقوع النصر كان بسبب بشارته لهم.^{٢٦} أما التعبير بالفعل المضارع في قوله (تقول) فهو لحكاية الحال الماضية باستحضار صورتها في ذهن المتلقي.^{٢٧}

وتضمن قوله تعالى: (ألن يكفيكم) استفهامًا إنكاريًا، وفي هذا تصوير لصعوبة الموقف وشدته على المؤمنين الذين كانوا لا يتوقعون النصر؛ لقلتهم وضعفهم، وقوة عدوهم وعتاده؛ لذا جيء بـ: (لن) لإفادة تأكيد النفي،^{٢٨} وتضمن قوله (بلى) تصديقًا للوعد تطمينًا لهم، والمعنى بلى يمدكم بالملائكة إن صبرتم واتقيتم، وفي هذا حثُّ لهم عليهما معًا (الصبر والتقوى) وتقوية لقلوبهم.^{٢٩} وقدّم الوعد بإنزال الملائكة لتقوى قلوبهم ويشبتوا في ساحة القتال ويثقوا بنصر الله؛ ولهذا كان التعرض لعنوان الربوبية في قوله تعالى: (يمدكم ربكم) مع الإضافة إلى ضمير المخاطبين؛ لإظهار العناية بهم، والإشعار بعله المدد.^{٣٠} وتالت الأفعال المضارعة في قوله: (يكفيكم ويمدكم وتصبروا وتقوا ويأتوكم ويمدكم) فهذه الأحداث متعاقبة، ويتبع بعضها بعض، للدلالة استمرارية الحدث وتجدده.

وخشية أن يظن طان أن نصر الله تحقق بفضل مساعدة الملائكة جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾،^{٣١} ليقصر تحقيق النصر على

تقدير الله - سبحانه وتعالى - وصريح بلفظ الجلالة (الله) زيادة في تقرير هذه الحقيقة، وختمت الآية بـ (العزير والحكيم) إشارة إلى كمال قدرته وكمال علمه،^{٣٢} فالعزير قادر على وهب النصر - لمن يشاء - على الرغم من قلة العدد والعدة، والحكيم الذي يفعل ما يريد وفق حكمته، ولا يرد عليه أحد حكمه، ويدل وزن فعيل (حكيم وعزير) على ثبات هذا الأمر وديمومته، وجاء تقاسم (عزير) على (حكيم) في هذا السياق؛ لأن القوة تسند الحكمة.

وأعلمهم الله - سبحانه وتعالى - بإنزال الملائكة من باب البشارة لهم والتطمين؛ لذا جاء القصر عن طريق النفي وإلا في قوله: (وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) لتقرير حقيقة أن النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه من غير احتياج إلى قتال المؤمنين لأعدائهم.^{٣٣} كما يتضح من قوله تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَنتَحِشْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.^{٣٤} ويلفتنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ﴾.^{٣٥} عطف الفعل (تطمئن) على الاسم (بشرى) وعلل الرازي هذا الأمر بأن للمؤمنين مطلبين أولهما: ادخال السرور إلى قلوبهم وهذا المطلب تحقق بالبشرى، والمطلب الثاني: بث الطمأنينة وهذا يتحقق بإعانة الله لهم ونصرته، ولما كان هذا مطلبهم الأقوى والأساسي؛ لذا اقترن فعل الطمأنينة بلام التعليل (لتطمئن).^{٣٦} ومع أن الخطاب في الآية موجه للمؤمنين من أهل بدر، إلا أنه شامل للمؤمنين في كل زمان ومكانه بدليل التعبير بالفعل المضارع (وَلِتَطْمَئِنَّ)، أما أسلوب القصر فقرر أن النصر منحة ربانية من الله - سبحانه وتعالى - كما أن القيد (من عند الله) أكد هذه الحقيقة.

٣ - المدد في الآخرة:

والمدد لا يقتصر على المدد الدنيوي بل يمتد ليشمل عطاء الآخرة كما يفهم من قوله تعالى: ﴿وَأَمَدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَحَلِيمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ * يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيمُ﴾،^{٣٧} الذي جاء في سياق الحديث عن مظاهر النعيم التي سيتنعم بها المؤمنون في الجنة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴾،^{٣٨} وهذا من مظاهر الإمداد الخاص بالمؤمنين.

ومع أن الآية تتحدث عن نعيم الآخرة إلا أن التعبير بالفعل الماضي (وأمددناهم) يدل على تحقق هذا الأمر، وبما أنه صدر عن الله - سبحانه وتعالى - فهو واقع لا محالة حتى وإن لم يحدث بعد. كما أن الفعل (أمددناهم) يوحي بدوام نعيم أهل الجنة وعدم نفاذه أو توقفه؛ لأن المراد به (وزدناهم على ما كان لهم من

مبادي التنعم وقتًا فوقتًا ما يشتهون من فنون النعماء وألوان الآلاء،^{٣٩} مما يدل على مقدار الرفاهية التي سيتنعم بها أهل الجنة.

أما التعبير بالفعل المضارع (يشتهون) فللدلالة على التجدد واستمرارية الحدث، فهو يصف حالة الاشتهاة التي تجعل الإنسان يُقبل على تناول صنف معين من الطعام، ويفضله، وتُكرت الفاكهة واللحم في الآية السابقة للدلالة على كثرة النعيم، وتم قوله تعالى: (يَتَنَازَعُونَ) صورة النعيم والرفاهية التي سيكون عليها المؤمنون في الجنة.

والترتيب في الآية السابقة يتضمن إعجازًا علميًا فأكل الفاكهة قبل اللحم يساعد في عملية الهضم، وإذا ما أراد الإنسان الاستفادة عليه الالتزام بترتيب النص القرآني.

٤- المدد لبني إسرائيل:

وبنو إسرائيل من الأقوام التي متّعها الله - سبحانه وتعالى - في الدنيا بمظاهر شتى من النعيم، كما صور قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾،^{٤٠} وجاء الحق بالإمداد بالمال أولاً ثم البنين ثانياً؛ لأن الأموال هي الأهم في هذا السياق؛ لأنه يخاطب نفوساً جُبلت على حب المال والماديات في الحياة؛ ولهذا أبرزت الآية على الأمور المادية التي منّ بها الله - سبحانه وتعالى - عليهم، ونتج عن ذلك أن أصبحوا كما بيّن النص القرآني (وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا) وهذا من مظاهر تمكين الله - سبحانه وتعالى - لبني إسرائيل، عندما استحقوا ذلك.

ومع أن صيغة الجمع في أموال وبنين تدل على الكثرة، إلا أن الله - سبحانه وتعالى - نكرهما؛ ليفيد التكرير أيضاً؛ لإبراز مقدار عظيم النعم التي تفضّل بها - سبحانه - عليهم، وكان ذلك يستوجب الشكر على تلك النعم، ولكن هذا لم يحدث.

٥- المدد للمشركين:

ضرب الله - سبحانه وتعالى - أمثلة لتكريم المشركين بما كرّم به الأقوام السابقة؛ لأخذ العبرة مما حدث معهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾،^{٤١} وقوله تعالى: ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ﴾،^{٤٢} الذي في سياق تعداد نعم الله على عاد في أثناء محاولة هود - عليه السلام - إقناعهم لعلهم يؤمنون. (وبالغ في تشبيههم على نعم الله، حيث أجملها ثم فصلها مستشهداً بعلمهم، وذلك أنه أيقظهم عن سنة غفلتهم عنها حين قال: (أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ) ثم عدّها عليهم وعزّفهم المنعم بتعدد ما يعلمون من نعمته، وأنه كما

قدر أن يتفضل عليكم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب).^{٤٣} وجاء الأمر صريحًا (اتقوا) من باب النصح والإرشاد لهم أولاً ثم التحذير ثانيًا؛ لذا ذكّرهم بأن كل ما هم فيه من نعيم، هو من فضل الله - سبحانه وتعالى - عليهم، وأفادت (ما) في قوله: (أمدكم بما تعلمون) العموم دلالة على كثرة النعيم الذي كانوا يتنعمون به، أمّا قوله: (تعلمون) فهو من باب إقامة الحجة عليهم.

وبعد أن أجمل الله - سبحانه وتعالى - مظاهر النعيم فصلّ مظاهره في قوله: (أمدكم بأنعام وبنين) عبر إعادة الفعل لزيادة التقرير فإنّ التفصيل بعد الإجمال والتفسير إثر الإبهام أدخل في ذلك،^{٤٤} كما أنّ في التكرار تذكيرًا بالوهاب والمعطي، ونكر (أنعام وبنين) للدلالة على التكثر أيضًا، وبدأ بالأنعام لأنّ بها مقومات الحياة ثم تلا ذلك الحديث عن البنين وهم زينة الحياة الدنيا، ثم حتم بالجنات والعيون في قوله: ﴿وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾؛^{٤٥} للدلالة على الرفاهية والترّف الذي كانوا يتنعمون به، فهو بدأ بأساسيات الحياة ثم حتم بما فيه البهجة والنضرة، مما يعني أنه - سبحانه وتعالى - وفرّ لهم الأساسيات والكماليات معًا، وكان ينبغي عليهم المسارعة إلى الإيمان إزاء ذلك، ولكنهم مقابل هذا النعيم ازدادوا عنادًا وكفرًا.

وعلى الرغم من أنّ ظاهر الآيات يدل على الترغيب إلا أنه في باطنه يتضمن تهديدًا ووعيدًا لهم، والمعنى كما قدر الله تعالى أن يتفضل عليكم بهذه النعمة، فهو قادر على الثواب والعقاب، فاتقوه،^{٤٦} فهو الوهاب وهو السالب لما أعطى، فكل مظاهر التكريم تلاشت لما استحقوا العذاب.

وكان الوعد بالإمداد بالمال والبنين من وسائل الترغيب التي استعان بها نوح - عليه السلام - لإقناع قومه لعلهم يعدلون عما هم فيه من الكفر والإصرار عليه، كما كشف قوله تعالى: ﴿وَيُؤْمِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلَ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾،^{٤٧} ويدل التعبير بالأفعال المضارعة (وَيُؤْمِدْكُمْ وَيَجْعَلَ) على تجدد العطاء واستمراره، وتكرار (وَيَجْعَلَ) يؤكد ذلك.

ولم يقتصر الوعد على المال والبنين بل هناك الجنات والأنهار التي تنتظرهم أيضًا، وجاء تنكير كل مظاهر النعيم الدنيوي في الآية وبصيغ الجمع (أموال وبنين وجنات وأنهار) للدلالة على كثرة النعيم، ولتصوير مقدار الرفاهية والترّف الذي سيتنعمون به زيادة في الترغيب، وقدّم إليهم الوعد بما هو أكثر وقعًا في نفوسهم وأحبّ إليهم من المنافع الحاضرة والفوائد العاجلة، ترغيبًا لهم في الإيمان والطاعة ونتائجها من خير الدارين،^{٤٨} ونكرّ المال والبنين للدلالة على التكثر، وقدّم المال على البنين؛ لأنه الأقرب إلى النفس في هذا السياق، وهو أطمعهم بالحصول على بركات السماء وبركات الأرض إن هم آمنوا، وخاطب فيهم العقل والوجدان معًا، ومع ذلك لم يسارعوا إلى الإيمان، وهذا هو شأن الأقوام الكافرة لا يتغير ولا يتبدل، فهم يزدادون كفرًا كلما زاد مقدار النعيم الذي هم فيه. أما قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا تُنذِرُهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ﴾،^{٤٩} فجاء في سياق

الحديث عن الناس الذين يفرحون بما هم فيه من الضلال؛ لأنهم يحسبون أنهم مهتدون؛ ولهذا قال متهدداً لهم ومتوعداً: ﴿فَدَرَّهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾^{٥٠}، وغرض الاستفهام في (أيحسبون) لنفي توهمهم أن ما يعطيهم إياه الله - سبحانه وتعالى - من الأموال والبنين والمعزتهم عنده، بدليل قولهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾^{٥١}، بل يفعل ذلك استدراجاً وإنظاراً وإملاءً، وبدليل قوله: (بل لا يشعرون) وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾^{٥٢} والنهي المؤكد بنون التوكيد الثقيلة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾^{٥٣}، يبين أن العبرة في الإيمان والعمل الصالح، وليست في كثرة الأموال والأولاد^{٥٤} كما يظن المشركون بدليل قولهم: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ﴾^{٥٥} فالأموال والأولاد من متاع الدنيا الزائل. وقوله تعالى (بَلْ لَا يَشْعُرُونَ) جملة معطوفة على مقدر ينسحب عليه الكلام أي (كلاً)، لا نفعل ذلك، بل هم لا يشعرون بشيء أصلاً فهم كالبهائم أصلاً لا فطنة لهم، ولا شعوراً ليتأملوا ويعرفوا أن ذلك الإمداد استدراج لهم إلى زيادة الإثم، وهم يحسبونه مسارعة لهم في الخيرات.^{٥٦} والتصريح بلفظ الجلالة (يُرِيدُ اللَّهُ) لربطه بالمشيئة الربانية؛ لأنه الوحيد القادر على فعل الإمداد، وعلى سلبه أيضاً.

الخاتمة:

ومما سبق يتضح:

تنوع المدد في القرآن الكريم ما بين المدد الخاص بالمؤمنين والمدد الذي شمل غيرهم، لكن المدد في الآخرة فهو خاص بالمؤمنين.

وبالنظر في الآيات القرآنية التي ورد فيها المدد يمكن القول إن المدد خاص بالأموار المادية من مثل: الإمداد بالمال والبنين والجنات والأنهار والعيون، حتى الإمداد بالملائكة الذي حدث في غزوة بدر فهو من المدد المادي؛ لأن الملائكة -على أرجح الأقوال- قاتلت مع المسلمين، وأسهمت في تكثير عددهم وهزيمة المشركين.

وبما أن الإمداد خاص بالأموار المادية فهو يشمل المؤمنين وغير المؤمنين بدليل أن قومي نوح وهود -عليهما السلام- وعدوا به إن هم آمنوا، كما اتضح في ثنايا هذا البحث.

هوامش البحث:

- ^١ سورة ص، الآية ٢٩.
- ^٢ انظر: الزهرة، شوقي، جذور الأسلوبية من الزوايا إلى الدوائر: دراسة فيلولوجية، (القاهرة: مكتبة الآداب، د.ت)، ص ٦٩.
- ^٣ انظر: السامرائي، فاضل، التعبير القرآني، ط ٤، (عمان: دار عمّار، ٢٠٠٦م)، ص ٢٠.
- ^٤ انظر: دراز، محمد عبد الله، النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، (الكويت: دار القلم، ١٩٨٤م)، ص ٩٦.
- ^٥ انظر: القرعان، فايز، دراسات أسلوبية في النص القرآني، ط ١، (الأردن: عالم الكتب الحديث، ٢٠٠٤م)، المقدمة.
- ^٦ انظر: ابن فارس، أبو الحسين أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (القاهرة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت)، مادة (مد).
- ^٧ ابن منظور، محمد بن جلال الدين بن مكرم، لسان العرب، تحقيق: عبد الله العلايلي، (بيروت: دار الجيل، ودار لسان العرب، ١٩٨٨م)، مادة (مد).
- ^٨ انظر: حسان، تمام، اللغة العربية معناها ومبناها، ط ٢، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م)، ص ٩.
- ^٩ انظر: هندواي، عبد الحميد أحمد، الاعجاز الصرفي في القرآن الكريم، ط ١، (الأردن: عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العلمي، ٢٠٠٨م)، ص ٤٧.
- ^{١٠} سورة لقمان، الآية ٢٧.
- ^{١١} سورة البقرة، الآية ١٥.
- ^{١٢} سورة مريم، الآية ٧٩.
- ^{١٣} أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت)، ج ٢، ص ٧٩.
- ^{١٤} سورة الإسراء، الآية ٦.
- ^{١٥} سورة الإسراء، الآية ٢٠.
- ^{١٦} انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، (دمشق: دار الفحاء، ١٩٨٨م)، ج ٣، ص ٣٣٢.
- ^{١٧} انظر: السابق نفسه.
- ^{١٨} انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف: عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ط ١، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي معوض وفتح عبد الرحمن أحمد حجازي، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٩٩٨م)، ج ٣، ص ٥٠٦؛ وأبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٥، ص ١٦٣.
- ^{١٩} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٥، ص ١٦٤؛ والزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف: عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج ٣، ص ٥٠٦.
- ^{٢٠} سورة الإسراء، الآية ١٨.
- ^{٢١} سورة الإسراء، الآية ١٨.
- ^{٢٢} سورة الإسراء، الآية ١٩.
- ^{٢٣} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٣، ص ١٦٣.
- ^{٢٤} سورة آل عمران، الآية ١٢٤.

- ^{٢٥} سورة آل عمران، الآية ١٢٥.
- ^{٢٦} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٧٨.
- ^{٢٧} انظر: السابق نفسه.
- ^{٢٨} انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف: عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، ج ١، ص ٦٢١؛ والرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، تفسير الفخر الرازي الشهير بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، ط ١، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر، ١٩٨١م)، ج ٨، ص ٢٣٤؛ وأبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٧٩.
- ^{٢٩} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٧٩؛ ومحمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، ط ١، (بيروت: دار القرآن الكريم، ١٩٨١م)، ج ٢، ص ٤٩.
- ^{٣٠} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٢، ص ٧٩.
- ^{٣١} سورة آل عمران، الآية ١٢٦.
- ^{٣٢} الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ٢٣٦.
- ^{٣٣} ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج ١، ص ٥٣٣.
- ^{٣٤} سورة محمد، الآية ٤.
- ^{٣٥} سورة آل عمران، الآية ١٢٦.
- ^{٣٦} الرازي، فخر الدين بن ضياء الدين عمر، مفاتيح الغيب، ج ٨، ص ٢٣٦.
- ^{٣٧} سورة الطور، الآية ٢٢ و ٢٣.
- ^{٣٨} سورة الطور، الآية ١٧.
- ^{٣٩} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٨، ص ١٤٨.
- ^{٤٠} سورة الإسراء، الآية ٦.
- ^{٤١} سورة الشعراء، الآية ١٣٢.
- ^{٤٢} سورة الشعراء، الآية ١٣٣.
- ^{٤٣} الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٤٠٧.
- ^{٤٤} انظر: أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٦، ص ٢٥٦.
- ^{٤٥} سورة الشعراء، الآية ١٣٤.
- ^{٤٦} انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، ج ٤، ص ٤٠٧.
- ^{٤٧} سورة نوح، الآية ١٢.
- ^{٤٨} انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، تفسير الكشاف، ج ٦، ص ٢١٤.
- ^{٤٩} سورة المؤمنون، الآية ٥٥.
- ^{٥٠} سورة المؤمنون، الآية ٥٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ج ٣، ص ٣٣١.
- ^{٥١} سورة سبأ، الآية ٣٥.
- ^{٥٢} سورة التوبة، الآية ٥٥.

^{٥٣} سورة آل عمران، الآية ١٧٨.

^{٥٤} انظر: الصابوني، صفوة التفسير، ج ٣، ص ٣٣٢.

^{٥٥} سورة سبأ، الآية ٣٥.

^{٥٦} انظر: أبو السعود، محمد بن محمد العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: المعروف بتفسير أبي السعود، ج ٦، ص ١٣٨.

References

المراجع:

Abū al-Su‘ūd, Muḥammad Bin Muḥammad al-‘imādī, *’irshād al-‘aql al-Salīm ’ilā Mazāyā al-Qur’ān al-Karīm: al-Ma’rūf bi Tafsīr ’abī al-Su‘ūd*, (Beirut: Dār ’ihyā’ al-Turāth al-‘arabiyy).

Al-Qar‘ān, Fāyiz, *Dirāsāt ’uslūbiyyah fī al-Naṣṣ al-Qur’āniyy*, ١st edition, (Jordan: ‘alam al-Kutub al-Ḥadīth, ٢٠٠٤).

Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn Bin Ḍiyā’ al-Dīn ‘umar, *Tafsīr al-Fakhr al-Rāzī al-Shahīr bi al-Tafsīr al-Kabīr wa Mafātīḥ al-Ghayb*, ١st edition, (Beirut: Dār al-Fikr li al-Tibā‘ah wa al-Nashr, ١٩٨١).

Al-Sāmīrā’ī, Fāḍil, *al-Ta’bīr al-Qur’āniyy*, ٤th edition, Oman: Dār ‘Ammār, ٢٠٠٦).

Al-Zahrah, Shawqī, *Judhūr al-’Uslūbiyyah min al-Zawāyā ’ilā al-Dawā’ir: Dirāsah Filūlūjiyyah*, (Cairo: Maktabah al-’Ādāb).

Al-Zamkhsharī, Maḥmūd Bin ‘umar, *Tafsīr al-Kashshāf: ‘an Ḥaqā’iq al-Tanzīl wa ‘Uyūn al-’Aqāwīl fī Wujūh al-Ta’wīl*, ١st edition, ed. ‘ādil ‘ahmad ‘abd al-Mawjūd wa ‘alī Mu‘awwad wa Fathī ‘abd al-Raḥmān ‘ahmad Ḥijāzī, (Riyad: Maktabah al-‘ubaykān, ١٩٩٨).

Darrāz, Muḥammad Abdu Allāh, *al-Naba’ al-‘azīm, Nazarāt Jadīdah fī al-Qur’ān*, ٢nd edition, (Kuwait: Dār al-Qalam, ١٩٨٤).

Handawī, ‘abd al-Ḥamīd ‘Aḥmad, *al-Ijāz al-Ṣarfīyy fī al-Qur’ān al-Karīm*, ١st edition, (Jordan: ‘Ālam al-Kutub al-Ḥadīth, Jidārā lilkitāb al-‘ilmiyy, ٢٠٠٨).

Ḥasān, Tamām, *al-Lughah al-‘arabiyyah Ma‘nāhā wa Mabnāhā*, ٢nd edition, (al-Hay’ah al-Miṣriyyah al-‘āmmah lilkitāb, ١٩٧٩).

Ibn Fāris, ‘Abū al-Ḥusayn ‘Aḥmad, *Mu‘jam Maqāyīs al-Lughah*, ed. ‘Abd al-Salām Muḥammad Hārūn, (Dār al-Fikr li al-Tibā‘ah wa al-Nashr wa al-Tawzī‘).

Ibn Kathīr, ‘abū al-Fidā’ ‘ismā‘īl, *Tafsīr al-Qur’ān al-‘azīm*, ed. ‘Abd al-Qādir al-‘arnā’ūt, (Damascus: Dār al-Fayḥā’, ١٩٨٨).

Ibn Manzūr, Muḥammad Bin Jalāl al-Dīn Bin Mukarram, *Lisān al-‘Arab*, ed. ‘Abdu Allāh al-‘alāyī, (Beirut: Dār al-Jīl, wa Dār Lisān al-‘Arab, ١٩٨٨).

Muḥammad ‘Alī al-Ṣabūnī, *Ṣafwah al-Tafāsīr*, ١st edition, (Beirut: Dār al-Qur’ān al-Karīm, ١٩٨١).